الفصل الحادي عشر

من العثمانيين حتى محمد علي

سنحاول فيما يلي إلقاء نظرة سريعة على وضع عربان مصر وأحوالهم إبان الحكم العثماني الذي استمر طوال ثلاثة قرون، وانتهى بغـزو نـابليون بونـابرت لمصر في سنة ١٧٩٨م، وما سجله علماء هذه الحملة الفرنسية عن القبائل البدويـة في موسوعة"وصف مصر"، وسنتطرق في نهاية المطاف إلي موقف محمد على من هؤلاء العربان.

١- **العثمانيون والعربان:**

لقد فتح العثمانيون صفحة جديدة في تاريخ من بقى من البدو فـي مـصر، فطوال الحكم العثماني لمصر (١٥١٧-١٧٩٨م) هادن الحكام العثمـانيون شـيوخ العرب وحاولوا اجتذابهم إلى صفوفهم، وخاصة عربان الوجه القبلي، حيث كـان بنو عمر وهم من الهوّارة يحكمون الصعيد حتى (١٦٠٧م)، ولقد كانت مصر فـي تلك الأزمان في حالة من الانقلابات والمجاعات والأوبئة والأزمات المالية الخانقة، وقد كانت هذه الفترة التي استمرت ما يقرب من ثلاثمائة عام عبارة عـن معركـة مستمرة من أجل السلطة والسيطرة على إيرادات الضرائب بين نواب الملك - وهم الحكام- وبين فيالق الانكشارية وغربان والبكوات، وكانت القاهرة هـي المحـرك الأول لهذه الاضطرابات، ومن ثَمَّ فإن البدو قد ابتعدوا عن مسرح هذه الانقلابـات والفتن ولكنهم لم ينجوا من بطش علي بك الكبير والذي عقد العـزم علـى إبـادة العربان جميعا للتخلص من شرهم، فقام بالتنكيل ببعض القبائـل وقـضى عليهـا، واضطر أكثرها إلى الفرار إلى الصحراء هربا من هذه المجزرة، وعلى بك الكبير هو نفسه الذي دافع عن قوافل الحج في شبابه ضد إغارات العربان عليها، وعلـى

هذا يعلق الأستاذ أحمد لطفي السيد قائلاً[1]:"لقد كان على بك الكبير غير مـصيب، لما هو ثابت من فائدة وجودهم (أي وجود العربان)، وعلى الأخص في ذهنه، لأن الجمل هو سفينة الصحراء، والعرب هم ربانو هـذه الـسفن وقادتهـا فـي هـذا الأوقيانوس الأرضي الذي لا أفق له، والعربان وحدهم هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى، والعربان هـم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين الـبلاد علـى خفافها، فبالاحتفاظ بهم تتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم، والتي لا يجاريهم فيها مجار.

٢- نظرة علماء الحملة الفرنسية إلى عربان مصر:

طالما أزعج عربان مصر جيش الحملة الفرنسية التي شنها نابليون بونابرت على القطر المصري سنة (١٧٩٨م)، مما دفع هذا الأخير إلى قتالهم وكبح جماحهم بواسطة فرقة من الهجانة، قال بونابرت في مذكراته:"إذا كان موقع مصر الغريب، وهو البلد الذي يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيـضان، يقتـضي حـسن الإدارة لانتظام شئونه واستقامة أحواله، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث تنالهم يد العدالة -- تدعو إلـى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة، بحيث توقع رهبتها فـي أفئـدة أولئك الأشرار، فلا يعيثون في الأرض فساداً في تلك الأقطار"، وهو يقصد بـذلك عربان الصحراء الذين كانوا يرون أنفسهم دائماً في حالة حرب لا يخمد ضـرامها مع الحضر، فما بالك بالمعتدين الأجانب!! وقد برر الفرنسيون بمقولة بونابرت، فما كادوا يحتلون القطر حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيتهم.

وقد أحصى عدد العربان جميعاً على عهد الحملة الفرنسية[2]، فكانوا (١٣٠) ألفاً تقريباً، منهم (٢٧) ألف فارس، و(٤٠) ألف راجل.

---

[1] **أحمد لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٣٠.**

[2] **كتاب الحملة الفرنسية، ج١، ص٦٢:٥٩.**

ويمكن توزيع القبائل العربية في الأقاليم المصرية في عهدها علـــى النحـــو التالي:

١- في مديرية المنصورة (٣) قبائل مستقرة من الدرجة الأولى؛ قبيلة حسن طوبار، واخرون.

٢- في مديرية البحيرة، قبائل رحل من الدرجة الأولى؛ أولاد على وآخرون.

٣- في مديرية الشرقية، (١٥) قبيلة، منها (٤) رحالة من الدرجة الأولـــى؛ لنى واحرون، و(٨) قبائل من الدرجة الأولى؛ العايد واخرون، و(٣) قبائل مستقرة من الدرجة الثانية، أولاد رهير واحرون.

٤- في مديرية القليوبية، قبائل مستقرة من الدرجة الأولى، وهي: الحويطات واحرون، وقبائل مستقرة من الدرجة الثانية؛ الترابين واخرون.

٥- في مديرية الجيزة والمنوفية، قبائـــل مـــستقرة ورحالـــة، الجـــوازي أو (الحوابس)، رحالة من الدرجة الأولى تحمل النطرون من واديه وتوزعـــه علـــى جهات القطر من مريوط إلى أسيوط.

٦- في الفيوم، قبائل مستقرة ورحالة، وكان يطلق عليها كلها اسم سمالوس.

٧- في بني سويف، الضعفاء وخويلد: مستقرتان في المنيا، محارب: مستقرة من الدرجة الأولى، والجوادي وقبائل أخرى بعضها مستقرة وبعض رحالة.

٨- في أسيوط، طرهونة والعطيات، مستقرتان من الدرجة الأولى، وقبائـــل أخرى رحالة.

٩- في جرجا والهوارة وبني واصل، مستقرتان من الدرجة الأولى.

١٠- في قنا وأسوان، عبابرة وعليقات، الأولى رحالة، والثانيـــة مـــستقرة، وكلتاهما من الدرجة الأولى[١].

---

[١] انظر: أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، القاهرة، ١٩٣٦، ص٢٤:٢٥.

وقد قسم الأستاذ جومار، أحد علماء الحملة الفرنسية الذين اشتركوا في وضع موسوعات"وصف مصر"هذه القبائل إلى نوعين:

الأول: العرب المزارعون.

والثاني: العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحّل، ثم قـام بتـصنيف النوع الأول إلى صنفين:

١- القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد، القبائـل التـي اسـتقرت حديثا، وقد ختم دراسته بقوله[1]: ولقد تبدو الملاحظات التي كانت موضوعا لهـذه المذكرة، والتي نمت بشكل مبني في مسرح الأحداث بهدف وحيـد هـو دراسـة العرب وتقاليدهم قد تبدو بلا هدف ما لم تكن ترتبط بإطار عـام، أو كانـت قـد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التي تقلق روح القارئ المصقف، ولكي نكتفي في هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات اهمية، فإن من الميسور أن نضيف إلى ما سبق ان العرب المستقرين في مصر يتزايدون اكثر فأكثر، سواء في أعدادهم أو قـوتهم ، انهم سيستولون يوما على السلطه إذا لم يوضع حد لوقف عروانهم.

وفي الواقع، فمهما تكن اصول وأقدار هؤلاء العرب سـواء هـؤلاء الـذين يسكنون الخيام منهم أو اولئك الذين يقطنون القرى، وسـواء كـانوا يزرعـون أو يستزرعون الأراضي، أو كانوا لا يشتغلون إلا بالقوافل وتجـارة الماشـية ودواب الحمل، وسواء كانوا ينتمون إلى القبائل العربية القادمة من آسيا، أو كانوا من أولئك التي قدمت من شمال إفريقية، وأخيرا سواء تلك التي تعيش في حرب مـع حكـام البلاد – فإننا نرى أنه تتوقد فيهم جميعا نفس الروح، وأنهم يرون أنفسهم أعلى قدرا من أبناء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل، وأنهم ينظـرون إلـى مصر باعتبارها عقاراً خاصاً بهم، إن خلاص هذه البلاد يكمن في الانقسام الحالي بين هذه القبائل – الأمر الذي يعود بشكل خاص إلى غيبة زعيم يتـولى قيـادتهم

---

[1] انظر: وصف مصر. ترجمة: زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٦٢:٣٦٣.

ويكون في ذلك قوياً وقادراً للحد السكاني، وإذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشتت اهتمام حكام مصر فقد تكون الإشارة الأولى كافية، لإطلاق الشرارة، وإذا كان يحق لنا أن نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل، فلابد أن ينظر المـــرء إلى هذا التطور كواحد من أكثر التطورات التي تتهدد الشرق احتمالاً.

أما عن طباع العرب كما صورتها، فسوف يرى القارئ أن هذه الصورة، لا تتفق في كثير مع ما اشتهر عن الأمة من النزاهة والصراحة، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة، ومع ذلك فقد أردت أن أنقل إلى القارئ بإخلاص، نفس الانطباع الذي تكون لدي وأنا بينهم في مخيماتهم، لقد كان على أن أقدم العرب كما رأيتهم في مصر ، وليس كما هم في أماكن أخري، أما الأفكار التي راودتني وأنا أراهم يسلكون، والانطباعات التي استولت علي أثناء تـــدويني هـــذه الأفكار، فقد احتفظت بها لنفسي، مقتنعا بأن للرحلة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ، وأن عليه قبل كل شيء أن يولي اعتباره للمشاعر البسيطة التي شعر بها، ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف، وبخاصة أبنـــاء شـــبه الجزيرة العربية، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشيء عما قيل، وإنني أميـــل إلـــي الاقتناع، بأنهم ليسوا فقط أقل جشعاً، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقةً، ولكن وفوق ذلـــك بأنهم يمارسون كرم الضيافة، وبأنهم يصدقون في ارتباطاتهم، وفي بقية الأمور، بل إن هؤلاء الذين رأيتهم في مصر، أنفسهم لا تنقصهم مطلقاً الفضائل الأسرية، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين، فثراء البلاد التي يترددون عليها وفي مقابل قحولة الصحراء يثير فيهم أكثر فأكثر الجشع والـــنهم والبخـــل، وأمهـــات الغـــدر والخيانة وكل الجرائم، ومن جهة أخري فإن مثال المصريين والمماليك، لم يفعـــل سوي أن أضاف إلي عيوبهم، فلقد ولّد عندهم احتياجـــات كـــانوا يجهلونهـــا فـــي صحراواتهم وأذواقاً غربيةً على تقاليدهم البسيطة والأبوية، والتي تـــشكل الطـــابع المميز للعرب، وهو طابع ملحوظ لحدٍّ ظل معهم على نفس حاله منذ زمـــانٍ لـــيس تعيه الذاكرة، دون أن تعتريه سوى تحورات بالغة الرهافة، على الرغم من أن دين

النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم قد بوأ هذه الأمة عروشاً كثيرةً، في آســيا وإفريقيا، وأوروبا.

٣ – العربان في عهد محمد علي:

وقد حذا محمد علي حذو الفرنسيين، فألزمهم الوقوف عند حدهم، وكانوا قــد بلغوا في عهده من الجبروت والبأس حد النهاية، حتى كانوا يفرضون الإتاوات على سكان مصر، وكانوا يهددون بالزحف على القاهرة نفسها، وقد سلك محمــد علــي معهم مسلك المهادن أولاً، وعقد معهم الاتفاقيات، فهتكوا ستارها، وخاسوا بعهودهم، غير مبالين ولا هيابين، فعول على قمعهم وتأديبهم، وسيَّر لقتالهم الفرسان والمشاة، فأخذت عليهم الآفاق، وسدت عليهم السبل، حتى اضطرتهم إلى التمــاس الــصلح، واستمناح العفو فاستشرط عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن، وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم، فهدأت حالهم.

ولما غامر محمد علي بحروبه في السودان وجزيرة العرب والشام، عرض عليهم تشكيل فرق منهم، واقترح أن يدفع لهم الأجور مقابل خدمتهم؛ شــريطة أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته، ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة للجيش المصري من الوجهة العسكرية، فالعربان هم أصلح الناس لمهمة استطلاع العدو ومطاردته أثناء الهزيمة أو معاكسته في أثناء انسحابه.